دراسة من كتاب

مركز المسبار للدراسات والبحوث
Al Mesbar Studies & Research Centre

رؤى من بلجيكا
لمكافحة التطرف والإرهاب

الكتـــاب 158 فبراير (شباط) 2020

كتاب شهري يصدر عن مركز المسبار للدراسات والبحوث

استراتيجيات نزع التطرف في السجون البلجيكية

إبراهيم ليتوس(*)

منذ أن أصبحت بلجيكا مستقلة عام 1830، تطورت المملكة البلجيكية من ولاية وحدوية أو اتحادية إلى دولة فيدرالية. أما بين عامي 1970 و1993 فتطورت البلاد إلى هيكل اتحادي فعال. وحدث هذا من خلال ستة إصلاحات دستورية تمت على مستوى الدولة (في أعوام 1970 و1980 و1988 و1989 و1993 و2001)، ولهذا السبب تقول المادة الأولى من الدستور البلجيكي اليوم: «بلجيكا هي دولة فيدرالية، تتألف من المجتمعات والمناطق». لقد كفل هذا الهيكل الفيدرالي الجديد أن يصبح التكوين والتعليم الإسلامي من صلاحيات الحكومة الجهوية الفلمنكية والإقليمية. لكن الاعتراف بالإسلام (منذ 1974) وملف السجون هما من صلاحيات وزارة العدل البلجيكية التابعة للحكومة الفيدرالية المركزية.

(*) باحث في المركز الدولي للأبحاث وحقوق الإنسان في بروكسيل.

يقارب عدد سكان بلجيكا (11) مليون نسمة، ويصل عدد المسلمين فيها إلى (7٪) تقريباً أي (781,887) وهي إحصائيات تقريبية لعلماء الاجتماع، لأن القانون البلجيكي يمنع الإحصاء الحصري للمواطنين على حسب ديانتهم[1]. كان اهتمام الدولة البلجيكية بظاهرة التطرف والإرهاب والسياسات الواجب اتباعها نحو السجناء مبكراً. لا سيما بعد العهد الذهبي في الستينيات من القرن الماضي، حيث كانت حملات الاستقطاب للأيادي العاملة من شمال أفريقيا وتركيا على أشدها.

فسنوات الرخاء، والفترة التي كان المهاجرون يستقبلون فيها بشغف وحرارة، قد ولت ولم تدم طويلاً. لقد تدهورت الأحوال وأصبحت هشاشة المجتمع مع التهميش السياسي والإقصاء الاقتصادي، اللذين لاقتهما مختلف شرائح المجتمع بشكل صارخ ومقلق في التسعينيات، لا سيما المجموعات الإثنية والأجانب على وجه الخصوص. عرفت العنصرية وكراهية الأجانب في تلك الحقبة صعوداً ملحوظاً، فبدأ الإقصاء والميز ينموان بشكل واضح، وبدأت حملات التحريض ضد الأجانب تزداد يوماً بعد يوم، لا سيما بعد اكتساح الحزب اليميني المتطرف سنة 1994 في الانتخابات البلدية وحصوله على أكثر من (28٪) من الأصوات في كبرى المدن كأنفرس، بمنطقة الفلاندرن، وقد حصل في السنة نفسها على مقعدين في البرلمان الأوروبي[2].

الحزب اليميني «فلامس بالانخ»، في نمو متزايد، إذ صوت عليه أزيد من (810,117) ناخباً، وحصل الحزب أخيرا على أكثر من (18) مقعدا في البرلمان الفيدرالي و(23) مقعداً في البرلمان الجهوي الفلمنكي في انتخابات 2019 [3]. توالت الاتهامات منذ ذاك الحين للأجانب (نسبة المسلمين من مجموع الأجانب «24.8٪»)[4]، وباتت هذه الأحزاب في وسائل الإعلام تصور الأجانب والمسلمين بأنهم السبب في انعدام الأمن وتفشي البطالة وتدهور الرفاهية، كل ذلك جعل الهوة بين الساسة والمسلمين تكبر مع مرور الأيام.

---

(1) Hertogen Jan , Moslims in België , UCL , 2016, zie www.unia.be

(2) Haelterman & Abramowicz,1997 .

(3) Thijs Tommy,Vlaams Belang halt een kwart meer stemmen dan PS, www.hln.be

(4) www.dewereldmorgen.be /artikel 2014 / 24.8 % v.d. migratieachtergrond zijn moslims

أما أحداث الحادي عشر من سبتمبر (أيلول) 2001 فكانت المحطة الفاصلة، حيث أصبحت الجماعات الإرهابية التي تزعم أنها قامت للدفاع عن الإسلام والمسلمين، هي الأخرى عاملاً أساسياً في تشويه سمعة الإسلام والمسلمين في أوروبا، فكان الإنسان المسلم محل توجس وخوف لدى الرأي العام الأوروبي. منذ ذلك الحين أصبح التطرف الديني والتطرف السياسي محورين يغذيان بعضهما بعضاً.

بدأ تزايد العنصرية وتنامي التطرف الديني يؤثران في بعضهما بشكل جدلي، لأن كل عنصرية يتولد عنها تطرف وكل غلو، بدوره يغذي العنصرية والكراهية، وهذا -إلى حد ما- يمكن تشبيهه بالسؤال الجدلي. أيهما جاء أولاً: الدجاجة أم البيضة؟ لا سيما لدى الباحثين، الذين يعزون أسباب التطرف إلى عوامل اقتصادية وسياسية.

عندما اندلعت الحركات الاحتجاجية في عدد من الدول العربية بدءاً من عام 2011 شهد الأعوام التالية مرحلة لم تشهدها أوروبا من قبل، ولم تتوقعها حتى الأجهزة الأمنية الأوروبية بحدوثها بهذا الحجم، بحيث كان العدد الذي سجل ممن سافروا وغادروا بلدانهم أكثر من (5 آلاف) من الشباب الأوروبي منهم ما لا يقل عن (550) من النساء، للانضمام إلى تنظيم «داعش» وإلى مجموعات متطرفة في سوريا والعراق[5]. فبدأت الدوائر الحكومية المختلفة تئن من كابوس ظاهرة التطرف، وباتت تبحث عن أنجع السبل للوقاية منه. وأصبح هاجس التصدي للتطرف يقض مضاجع الحكومات الأوروبية، ومن حينها سعت الحكومة جاهدة للعناية بظاهرة التطرف والراديكالية وذلك بمقاربات مختلفة، بشمولية أكثر وبشكل أعمق تجلت في خطة ثلاثية وبأبعادها المختلفة: الوقائية، الردعية والعلاجية.

(5) Loobuyck Patrick, De lokroep van IS , Tarik Fraihi, Syriëstrijders de cijfers en hun verhalen, Pelckmans,Kalmthout,2015 p.7

طبيعة مؤسسة السجون والسجناء في بلجيكا

كان السجن في القرن السادس والسابع عشر مجرد مكان وقاعة انتظار لكي ينال الشخص عقوبته إما بالعقوبة الجسدية أو بالإعدام. وبعدها بقرن، أي في القرن الثامن عشر، جاءت عقوبة السجن كإجراء لنزع حرية الشخص عند اقترافه للجريمة[6]. ولا ننسى أن الهندسة المعمارية للسجن وحتى الشكل الذي بني عليه -في حد ذاته- كان وما يزال يلعب دوراً مهماً في تعلم الانضباط وترويض سلوك المسجونين وإحساسهم بأنهم دوما تحت الرقابة، على سبيل المثال، كون اختيار بناء برج عال -في وسط الساحة والمطل على سائر الزنزانات- هو مقصود لذاته وجزء لا يتجزأ من هندسة السجن ولصيق بوظيفته الترويضية؛ إذ كان يترك أثراً بالغاً في نفسية السجناء، وهو ما يسمى اصطلاحاً بالسجن البانوبتيكي المنسوب إلى صاحب هذه النظرية[7].

إن ما يميز السجن عن غيره من الفضاءات، كونه صارماً ومحكوماً بالبيروقراطية والروتين أو الرتابة والتسلسل الهرمي. حتى إن الفقهاء في الإسلام ومنهم الطبري والإمام أبو حنيفة فسروا قول الله تعالى: ﴿أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ...﴾ الآية[8] كنوع من التخيير للسلطان في العقوبة، وقالوا: إن النفي المقصود به هنا، هو السجن، لأنه نفي من سعة الدنيا إلى ضيق السجن، فصار المسجون في حكم المنفي أي كأنه نُفي من الأرض[9].

يبلغ عدد السجون في بلجيكا (35) سجناً حكومياً؛ 17 منها في منطقة فلاندرن و(16) في الوالون وسجنان في العاصمة بروكسيل، ويبلغ مجموع السجناء (110 , 47) في أنحاء الدولة البلجيكية كلها. والجدير بالذكر أنه، فقط (58٪) منهم بلجيكيون

---

(6) Faucault, 1997

(7) Bentham,1791.

(8) سورة المائدة، 5، والآية رقم 33.

(9) أضواء البيان في إيضاح القرآن ص394. على الرابط التالي:

www.library.islamweb.net

وأما الباقي فأجانب[10]. ولقد نبه المدير العام للسجون البلجيكية «رودي فان دا فوردا» من قلة الميزانية المخصصة لإدارة السجون، فمن مجموع (599) مليون يورو، يذهب جلها أي (75٪) منها إلى رواتب الموظفين، ولا يبقى منها سوى (159) مليون أورو للمصاريف الأخرى.

تشير إحصائيات مجلس أوروبا إلى أنه يوجد في الاتحاد الأوروبي (540,620) سجيناً، منهم (18٪) أجانب، وأما في الولايات المتحدة الأمريكية، ازداد عدد المسجونين سنة 2013، ووصل إلى (2.2) مليون سجين[11]، وهذا يعزوه بعض الخبراء إلى أنه في بداية الثمانينيات حينما بدأت حكومات الولايات المتحدة الأمريكية بخصخصة السجون في أمريكا، أصبحت مؤسسة السجون في أمريكا نوعاً من السوق التجارية، خصوصاً بعد أن بدأت الشركات الخاصة تتكفل بإدارتها، والتي لا يهمها إلا الربح الخاص، وذلك يتم بالتعاقد بين الطرفين على أن تتعهد الحكومة من جهتها، بملء السجون إلى أقصى حد ممكن وتتعهد الحكومة من جهتها، بملء السجون إلى أقصى حد، على أن تتولى الشركات بدورها عملية الإدارة والصيانة، شريطة ألا تتعرض هي كذلك للإفلاس. وهذا ما تم التفكير فيه من طرف وزير العدل البلجيكي السابق «ستيفان دا كلارك»، حيث قال: لو افتراضا أننا سنبني سجنا يتسع لـ(440) سجيناً فهو في الحقيقة سيوفر ويضمن للدولة (500) وظيفة شغل طوال مئة سنة. وهذا النهج في ممارسة السياسة، بدوره يطرح تساؤلاً كبيراً، لا سيما أن الساسة يقولون بأنهم في السنوات العشر القادمة بحاجة إلى بناء عشرة سجون على الأقل، لسد النقص الحالي. فلو تم العمل بهذا المنطق سيبقى السؤال مطروحاً حول أحقيته وأخلاقية هذا الأسلوب وإلى أي مدى، تتوافق هذه السياسة العمومية مع مبادئ حقوق الإنسان وضمان الفصل بين السلطات.

لا يجب أن يغيب عن أذهاننا، أن عملية الاكتظاظ داخل السجون البلجيكية، علاوة على محدودية الأماكن، لها أسباب دولية كذلك، منها -على سبيل المثال-

(10) Vandamme Michael , De Belgische gevangenissen , Trends Knack Magazine nr. 137 , April 2019.

(11) Cortebeeck Luc ,gevangenissen zijn business , Momagazine,17/09/2013.

ظاهرة المقاتلين الأجانب الذين بلغ عددهم ذروته سنة 2015 فوصل إلى 20 ألفاً منهم (497) من بلجيكا[12]. وعلى إثر ذلك تحرك المجتمع الدولي بقرار من مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة، وهو القرار رقم (2.178) الذي دعا من خلاله المجتمع الدولي إلى ضرورة أن تجرم الدول الأعضاء المقاتلين الأجانب في تشريعاتها المحلية[13]، حتى ولو كانت مجرد محاولة سفر إلى أرض النزاع لتنفيذ أعمال متصلة بالإرهاب، أو تمويل أعمال أو تنظيمها أو تسهيلها بشكل أو بآخر.

كان ذلك سبباً رئيساً لارتفاع عدد السجناء المتصلين بالتطرف العنيف، إذ يدخلون بمقتضى ذلك في نظام العدالة الجنائية ويتعرضون للسجن والاعتقال. كذلك فالاكتظاظ سببه الخصخصة التي بلغت منتهاها 2012، فاضطرت بلجيكا حينها، طيلة سبع سنوات متتالية للاستعانة بجارتها هولندا، لاستئجار سجن منها في مدينة تلبورخ 2010. وكان عدد النزلاء فيه آنذاك، (650) سجيناً[14]، وبلغت التكلفة السنوية أكثر من (170) مليون يورو، واستمر عقد الإيجار هذا حتى 2015[15].

السجون في بلجيكا: أنواعها وأهدافها

توجد ثلاثة أنواع من السجون والمعتقلات في بلجيكا: **السجون المغلقة**، وهي التي يكون فيها النظام صارماً مع كل النزلاء، حيث إن الزنزانة الواحدة مساحتها أربعة أمتار على ثمانية، ويتقاسمها اثنان وأحياناً ثلاثة أشخاص، والخروج من الزنزانة يكون فقط لمدة ساعة كل يوم. أما **المعتقلات المفتوحة** فهي معتقلات يتم فيها إعادة التربية وتعليم الانضباط لتغيير سلوك المعتقلين، ويكون النظام والظروف فيها غير قاسية وتتسم بنوع من الليونة ولذلك يطلق عليها، **السجون المفتوحة**

---

(12) Loobuyck Patrick, De lokroep van IS, Tarik Fraihi, Syriëstrijders de cijfers en hun verhalen, Pelckmans,Kalmthout,2015 p.7.

(13) US Congress Homeland Committee, Final Report of the task Force on combatting Terrorists &FTF, Washington DC,Sept.2015. pp. 11-12.

(14) Laatste gevangenen vertrokken uit «Belgische» gevangenis , www. vrt.be 15 dec.2016 .

(15) www.nieuwsblad.be /België huurt voor 170 miljoen per jaar , 17 sept.2014.

وغالباً ما تكون للقاصرين وأصحاب الجرائم الصغرى، وأما السجون شبه المفتوحة، فهي التي يحق فيها للسجين العمل فيها أثناء النهار، وفي الليل يعود إلى زنزانته.

يذكر المتخصصون أهدافاً عديدة للسجن وفوائده، منها: التخويف العام، حماية المجتمع، إعادة التربية، الإصلاح وإعادة التأهيل[16]. لقد صدق الحكماء قديماً حينما قالوا: «ابن مدرسة وستغلق في مقابل ذلك سجناً». إذ كانوا يعنون بذلك، التطبيق العملي لمقولة: درهم وقاية خير من قنطار علاج، ويتمثلون بذلك المثل الإنجليزي القائل: إذا كنت تشكو من الثمن الباهظ الذي يكلفه التعليم فجرب –إذن– ثمن الجهل، وفي حالتنا هذه فاترك التكوين والتأهيل وجرب التطرف. وهذا ينطبق تماماً على الحكومات التي تتقاعس عن الاستثمار في التربية والتكوين، وتشاهد نمو الأيديولوجيات المتطرفة ثم تجبر على إلزامية تفكيكها. وهذا الذي يقع بالضبط لدى الشباب الباحث عن هويته في أوروبا، فلا يجدون من يوجههم، ولا من يأخذ بأيديهم، فيقعون فريسة لتلك التيارات العابرة للقارات، لأنه تم إهمالهم وتُركوا لحالهم. فلم يعد في عصر العولمة بالإمكان منع انتشار الأفكار أو وضع حدود للآراء. فالجغرافيا القديمة تلاشت مع التكنولوجيا الحديثة، التي باتت تخترق الحدود والسدود؛ إذ إن الكثير من الشباب يلجؤون تلقائيا إلى مواقع الإنترنت ومواقع التواصل الاجتماعي وغرف الدردشة المظلمة؛ لينهلوا منها تلك السموم والأفكار المنحرفة. وقد تم إحصاء أكثر من (4,800) موقع من المواقع الجهادية بمختلف اللغات سنة 2014.

إن وظيفة الاستعلامات والأجهزة الأمنية في العالم جمع المعلومات والقيام بإدارتها بين الأجهزة الأخرى، قصد الاستباقية والتأهب للخطر القادم وكشفه، وبالرغم من ذلك لا يمكن ضمان عدم وقوع عمليات إرهابية. بلجيكا –مثلا– وجهازها الاستخباراتي ينسق مع (93) جهازاً، ولديه اتفاقيات تعاون أمني مع (69) دولة، وقام سنة 2015 بإرساليات فاقت 16 ألف[17] إرسالية، لكن ذلك لم يمنع وقوع الهجمات الإرهابية، فكان وقع ذلك الحدث كالصاعقة التي نزلت على

(16) De Ruyver,2004.

(17) Hoe kunnen inlichtingendiensten beter samenwerken? Volkskrant –Huib Modderkolk (30 maart 2016).

المجتمع البلجيكي. حيث إن التنظيم الإرهابي ضرب في 22 مارس (آذار) 2016 المطار الدولي، ونفق القطار الداخلي ببروكسيل، تاركاً وراءه أكثر من (32) قتيلاً و(340) جريحاً، وقدر الخبراء أن خسائر المحاكمة وحدها -والتي ستتم عام 2020- قدرت بمبلغ (17) مليون يورو نتيجة لإجراء المحاكمة، ومن أجل استكمال الأبحاث البوليسية والأمنية، لذلك كانت الإجراءات الأمنية وحدها غير كافية.

النماذج الثلاثة لفهم ثقافة السجون

من النظريات المعروفة التي تعين على فهم سلوكيات السجين، من خلال التعاطي مع محيط السجن، يمكن تمييز بين ثلاثة نماذج علمية[18] معمول بها في التحليل والمكاشفة، وهي: نموذج الحرمان الشخصي، ونموذج الاستيراد الذي يجلبه السجين معه من العالم الخارجي، سواء كان ذلك متمثلاً في حالته الاجتماعية أو في حالته الصحية... إلخ، والأنموذج التكاملي، الذي يأخذ كلا النموذجين بعين الاعتبار لفهم سلوك السجناء والتحكم فيها. فبالرغم من أن الأنموذج البلجيكي، في المكافحة والمعالجة، ما يزال في بداياته بالمقارنة مع دول أوروبية أخرى، مثل الدنمارك وبريطانيا، لا سيما على مستوى برامج التأهيل والتنشئة الاجتماعية. فالسجن المعهود، الذي هو بمثابة المكان الذي يوضع فيه الشخص، وتتقيد فيه حريته، عقوبة له على جرمه أو على ما ألصق به من تهم تمهيدًا لمحاكمته، فتطور مفهوم السجن في السنوات الأخيرة تطوراً هائلاً وأصبحت[19] مؤسسة السجون عالماً خاصاً، له محدداته وأبعاده المختلفة.

السجن هو المكان المناسب بحكم فضائه المنغلق والمناسب لاستقطاب الجماعات أو العناصر المتطرفة فيه[20]، ولم يعد مقتصراً على العقوبة فحسب؛ لأن أغلب السجون يدخلها أشخاص، ليسوا على درجة واحدة من الإجرام، والسجناء يتعرضون داخل السجن لعملية استقطاب وتجنيد من قبل عناصر أو مجموعات

(18) Beyens,2014.

(19) Noppe,Ponsaers,Verhaege,De Ruyver,2010 .

(20) Ibid, Noppe,Ponsaers,Verhaege,De Ruyver,2010 .

متطرفة، لأن المعتقلين تغلب عليهم العاطفة، وتكون أفئدتهم مجروحة متوهجة، وترنو نحو العالم الخارجي. يمكن أن يتحول السجن، إن لم يتفطن إليه، إلى مؤسسة تخرّج المجرمين بعد سنوات من الحرمان والضيق؛ وقد يكون مكانا مناسبا لنشوء الغلو فيكون السجين، أكثر عرضة للاستمالة إلى الأفكار الضالة، وتقبل أيديولوجيات الجماعات الإرهابية الأخرى والتي تتولد، ابتداء من الحرمان والإهانة، كما هو الشأن مع أغلب الجماعات المتطرفة والتكفيرية عبر التاريخ.

تقتضي قواعد الأمم المتحدة الأنموذجية لمعاملة السجناء، ضرورة الفصل بين السجناء، حسب وضعهم القانوني، فمن ينتظر المحاكمة في بلجيكا عددهم «3766» والمحكوم عليه عددهم «5,837» وهذه أرقام لسنة 2019، بين الرجال والنساء وبين البالغين والأطفال. بدأ في بلجيكا العمل بتخصيص سجناء الإرهاب في أجنحة خاصة، وتسمى بأجنحة الإرهاب، وهي في بعض السجون وليس كلها، حيث توزع على بعض المدن منها: سجن مدينة أتير، وسجن بروج، وسجن هاسلت، ووضعت هذه الأجنحة الخاصة للمتهمين بالإرهاب، أساسا كحماية، وللحيلولة بين الإرهابيين وغيرهم من السجناء الذين قد يحاولون تجنيد غيرهم من السجناء[21].

إن عملية التقويم من أجل تحديد المخاطر التي قد يشكلونها على أنفسهم أو على الآخرين، لها تقنيات خاصة لاستكشافها، وهي ضرورية من أجل ضمان اتخاذ التدابير اللازمة للتقليل من المخاطر، ومن أجل تسهيل إدماجهم في المجتمع في نهاية المطاف[22].

نمو التطرف العنيف

ليس ثمة عامل واحد للتطرف، وإنما هناك عوامل عدة اجتماعية، اقتصادية، سياسية، تربوية، وفكرية، حيث تلعب دوراً أساسياً في هذه التشكيلات الجديدة للإسلام، وفي نمط تدين المسلمين عموماً، ونزوع بعض الجماعات نحو سلوك

(21) Vandamme Michael , De Belgische gevangenissen , Trends Knack Magazine nr. 137 , April 2019.

(22) Handbook on the Management of High -Risk Prisoners - 2- 15.

التطرف لدى الشباب في بلجيكا على وجه الخصوص. نتج ذلك عن نقص حاد في الأئمة الأكفاء والقادة الدينيين الذين يفقهون دينهم ويفهمون واقعهم. يرجع ذلك أساساً إلى فشل المؤسسات الإسلامية في تحديث خطابها، والقيام بمسؤوليتها لتكريس الوسطية والاعتدال، والتكوين السليم للشباب المسلم في أوروبا.

أدت هذه العوامل إلى الغلو في التدين، وأقنع بعض المجموعات بأن ما يقومون به من قتل المدنيين والأطفال والنساء، هو «جهاد» في سبيل الله ضد الطغيان ومن أجل إقامة «الخلافة الإسلامية»، مع تناسي النصوص الفقهية التي تضع ضوابط قوية للجهاد في الإسلام، الذي له ظروفه التاريخية وأسبابه. وتالياً فالجانب الأمني إن لم تصحبها معالجة فكرية، وإعادة تأهيلية للإصلاح والاندماج المجتمعي، ستبقى قاصرة وغير فاعلة. من النماذج الناجحة في العالم الإسلامي، تجربة دولة الإمارات العربية التي أطلقها الشيخ محمد بن زايد، بتأسيس «مركز صواب» عام 2015 في أبوظبي، كاستراتيجية بديلة وللتصدي لخطابات الإرهابيين بخطاب مضاد عبر منصات ومواقع إلكترونية، أدت إلى نتائج إيجابية.

يمكن الإشارة إلى التجربة المغربية تحت مظلة مؤسسة إمارة المؤمنين، التي نجحت في برنامج المصالحة وفي التصدي للإرهاب والتطرف العنيف، والتي سمّاها أحمد العبادي (الأمين العام للرابطة المحمدية للعلماء) بـ «الهندسة السداسية للحقل الديني»، وهي تضم: «مؤسسة الإمامة العظمى»، و«المجلس العلمي الأعلى» الذي يعنى بالفتيا والإرشاد، إلى جانب «وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية»، المشتغلة في الجانب التدبيري والحكامة، و«جامع القرويين»، مشتل تخريج العلماء، و«معهد محمد السادس» لتأهيل الأئمة والمرشدين والمرشدات، و«الرابطة المحمدية للعلماء». حدد العبادي عشرة عناصر رئيسة أدت إلى نمو التطرف العنيف وهي [23]:

1. نظرية المؤامرة

2. الاستعمار

(23) العبادي أحمد، في تفكيك خطاب التطرف، الرباط، مطبعة المعارف الجديدة، 2018.

3. الإهانة للمسلمين
4. الغزو الفكري والقيمي
5. قضية السلام في الشرق الأوسط
6. المعايير المزدوجة
7. المآسي في العراق وأفغانستان والبوسنة
8. السطو على ثورات المسلمين
9. تحريف الجغرافيا والتاريخ
10. حرق المصحف الشريف وسب النبي (صلى الله عليه وسلم)

الإدارة المتكاملة لنزع التطرف في الأنموذج البلجيكي

منذ سنوات أصبحت المقاربة المتكاملة هي الأسلوب الأمثل لدى الجهات الحكومية وغير الحكومية للتعاون والتشارك لمعالجة الظواهر المعقدة ومنها ظاهرة التطرف والإرهاب، ونعني بذلك إشراك الجهات الفاعلة والمتعددة التخصصات في البرنامج أو الخطة التي يرجى تطبيقها. وُزعت الأدوار في بلجيكا بين الحكومات لمكافحة التطرف والإرهاب، فالحكومة المركزية هي التي تقوم بالجانب العقابي والأمني، والحكومة الجهوية تتكفل بجانب المعالجة من تكوين وتأهيل وتعليم.. وأما الحكومات المحلية مثل المدن والبلديات، فهي تقوم بكل ما هو وقائي لأن التطرف يبدأ ويتمركز في المحلي والجزئي.

تأسست منظمة ديراديانت (Deradiant)، وهي منظمة مستقلة، بعد ارتفاع وتيرة الهجمات الإرهابية وانضمام المئات من شباب بلجيكا إلى تنظيم «داعش» عام 2016، وأنشئت خصيصاً لنزع التطرف ومعالجة سلوك السجناء ببرنامج وتوجيهات عاجلة ضد العنف والجماعات المتطرفة.

تعتبر المنظمة بحق أنموذجاً من النماذج الناجحة في بلجيكا، إذ قامت بإعداد برامج متكاملة لإعادة الإدماج الشامل للسجناء، وقدمت خدمات وتدخلات داخل وخارج السجن. ويتكون فريقها من ثلة من الخبراء في الجانب الأكاديمي والأمني والديني والنفسي والسياسي والقانوني والميداني، وهي التي قامت بإنفاذ برامجها، طيلة ثلاث سنوات، وتمت فيها متابعة أكثرمن (15) حالة في السجون البلجيكية، وبالفعل كانت ذات قيمة مضافة، ليس فقط للسجناء وحدهم، وإنما لأسر المسجونين وذويهم والمجتمع ككل. لقد قمنا في المنظمة بوضع دليل استرشادي سطرنا فيه تقنيات إجراء الحوار في الجلسات الفكرية والنفسية. وكنا نقوم بتقييم الجلسات الشهرية والدورية لتهيئة السجناء المتطرفين للاندماج من جديد في المجتمع ومتابعتهم بعد الإفراج عنهم قصد المرافقة والإشراف.

اعتمدت بلجيكا على سياسة متوازنة تكمن في احترام حقوق الإنسان، واحترام دولة الحق والقانون، وحتى ولو ظهرت أحياناً بعض التجاوزات، لكنها تبقى حالة استثنائية، وليست هي القاعدة العامة التي تمثل وجهة نظر المملكة البلجيكية. فأول خطة ضد التطرف كانت هي ما بات يعرف بـ«الخطة م»، التي ترمز إلى الحرف الأول من كلمة مساجد، والتي أصبحت بعدها «الخطة ر». التي ترمز إلى الراديكالية سنة 2004. لكن تسارع الأحداث أوجب على الحكومة، التفكير في آليات جديدة لمواكبة التطورات التي طرأت على الساحة الدولية والأوروبية والتهديدات الأمنية على الوطن. فكانت أول مصادقة على الخطة الحكومية بتاريخ 16 يناير (كانون الثاني) 2015 وأعطيت الأولوية لأحد عشر إجراء يجب التسريع به وهي: تبادل المعلومات، تعزيز التنسيق، تقوية البحث العلمي، صناعة الخبراء... إلخ. فأصبحت تلك الخطة خريطة طريق والمرجعية للدولة البلجيكية بعد تفعيلها سنة 2017، ترسم الخطة الاستراتيجية الهادفة والمصممة. فأسموها الخطة الوقائية من عمليات الراديكالية التي يمكن أن تفضي إلى التطرف والإرهاب[24].

(24) Actieplan ter preventie van radicaliseringsprocessen die kunnen leiden tot Extremisme en Terrorisme (2de Rapportage, Vlaamse Regering, April 2016.

استندت الحكومة البلجيكية لنزع التطرف داخل السجون على خطة أنموذجية من خلال:

إشراك المجتمعات المحلية وقطاع التعليم والمنظمات الدينية كالمرشدين الدينيين، للوقاية والحد من زيادة تفشي التشدد في صفوف السجناء. فقام الجهاز الأمني البلجيكي بإقامة لجنة خاصة بالسجن، فيها أكثر من (12) من الأمنيين الذين يتابعون ويراقبون ظاهرة التطرف في السجون. ومن أجل ضمان قدرة سلطات السجن على مراقبة وتحديد الأنشطة غير المشروعة، جاءت فكرة استحداث هذه اللجنة، خصوصاً في السجون من طرف الاستخبارات البلجيكية للتنسيق المباشر وضمان فاعلية المعلومات الأمنية الخاصة بالسجون. وتأتي أهمية هذه اللجنة كذلك لا سيما بعد أن تبين، أن هناك أكثر من (400) متطرف في السجون منهم (130) سجيناً لهم علاقة مباشرة بملفات الإرهاب[25].

ومن الاستراتيجيات الأخرى المعتمدة: إنشاء هياكل فعالة للتشاور والتنسيق، تحسين الظروف في السجون، العمل على موقع معلومات أقوى، رقمنة تدفق المعلومات، العمل على عملية اكتشاف أفضل لظاهرة التطرف، سياسة تموقع السجين وإنزاله في الجناح المناسب، انتهاج متابعة فردية لكل سجين عند الحاجة والحالات الحرجة، إشراك -بصفة منتظمة- لممثلي الديانات، برامج إزالة التطرف وفك الارتباط مع المجموعات المتطرفة، وتعزيز الشراكات على المستوى المحلي والأوروبي.

مجمل التيارات المتطرفة المؤثرة في بلجيكا

إن القضاء على الظواهر الإسلاموية والوصول إلى التفكيك الجذري والبنيوي للتطرف العنيف؛ والسعي لإزالته أو التقليل من آثاره السلبية على المجتمع، هو مثل القضاء على الجهل والجريمة، ولا يقل خطورة عن التسييس المتعمد للدين كما يفعل الإسلام السياسي حالياً، لذا يتطلب التشخيص، توصيفاً دقيقاً للحالة الدينية في

(25) Staatsveiligheid waarschuwt voor geradicaliseerde gevangenen, www.knack.be 12/11/2016.

بلجيكا. علماً بأن الحركات التي سأذكرها تشكل عينة من بين نماذج عدة، وندرجها على النحو الآتي:

«الشريعة من أجل بلجيكا»

ظهرت «الشريعة من أجل بلجيكا» بداية في مدينة أنفرس الفلمنكية، وكانت تنشط منذ عام 2008 لكن تأسيسها الرسمي كان عام 2010، وقد حُلت بقرار قضائي بعد سنتين من تاريخ انطلاقها، فنتج عنها جماعة «الإسلام للحياة».

تأسست جمعيات فرعية تتبنى الشريعة الإسلامية وتنادي بها بالاسم نفسه في الدنمارك وهولندا وفرنسا. وقضت المحكمة سنة 2015 بأن الجماعة، جماعة إرهابية وحكم على رئيسها فؤاد بلقاسم المكنى بأبي عمران بـ(12) سنة سجناً نافذة. وهي في الأصل فرع لجماعة «الشريعة من أجل بريطانيا» والتي قامت بتحركات المدعو أنجم الشودري. (محام، بريطاني الجنسية، باكستاني الأصل، وهو تلميذ سابق للمدعو عمر البكري حيثً كانا معا في حزب يسمى «حزب المهاجرين» في بريطانيا)[26].

تيار التكفير أو الخوارج الجدد

يعتمد هذا التيار على أدبيات التيار الجهادي (تنظيم القاعدة)، وتيار التكفير والهجرة. يعمل على بناء عناصره بناء أيديولوجياً قوياً من خلال ضخ الأيديولوجية الإسلاموية في أتباعه من خلال: طاعة الأمير المطلقة، الانصياع الأعمى لقرارات الشرعية مهما كانت تحمل من غلو وتكفير، زرع الشك والخيانة في الخصوم واستعداؤهم، الطرح القوي للشخصية الجهادية البارزة التي تحارب قوى العالم.

يؤمن التنظيم بنظرية «بدء القتال بالعدو القريب» وهو في نظرهم كل من ارتكب معصية بتركه تطبيق الشريعة الإسلامية. استطاع التيار التكفيري، استقطاب الشباب عن طريق الدعاية المنهجة والمجلات الدعائية مثل: دابق ورومية والأعماق التي ترجمت إلى لغات عالمية وأوروبية أخرى. كلها دعايات للاستقطاب المضللة وعبر

(26) ليتوس إبراهيم، بحث غير منشور، إعادة إنتاج فقه طالبان، بروكسيل، منشورات الأكاديمية الإسلامية للتنمية والبحث، سنة2010.

شعارات وأفلام قصيرة تزرعها في العديد من المواقع والمنصات الإلكترونية، التي تحمل أفكار تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام.

التيار الجهادي

يمثله تنظيم القاعدة بشتى فروعه، وجبهة النصرة، وجند الأقصى، وجماعة بيت المقدس الإسلامية، وجبهة أنصار الدين، والجماعات في الساحل: الشباب، بوكو حرام، المرابطون، أنصار الإسلام، وتنظيم القاعدة في المغرب العربي. تبنى هذا التيار أيديولوجية قتالية في التغيير، وما ينشده هو جهاد ضد الأنظمة الطاغوتية وتحرير الشعوب الإسلامية من الظلم، وفقاً لفهمه المتطرف وحملها معه لقتال هذه الأنظمة وتحريرها لتحكمها شريعة الله، وبعدها تحارب الأنظمة العالمية التي تسرق ثرواتها وتتحكم بقراراتها، ولكن في مرحلة متقدمة. تزعم أنها ستحارب منهج التكفير وكذلك منهج الإرجاء وتعتبر الحكام العرب كفاراً مرتدين وقتالهم لا بد منه، ولكن قتال أمريكا التي نصبت أولئك الحكام هو الأهم والأولى للقتال في نظرهم (نظرية العدو البعيد أولاً).

الإخوان المسلمون

لم يعد الحديث عن جماعة الإخوان المسلمون بصيغة ضبابية مجدياً، وهو -كما نعلم- تنظيم له فروع عدة، ويتجلى في أسماء الجمعيات والمؤسسات الإعلامية والثقافية والإغاثية والاقتصادية والرياضية والبحثية. يتميز هذا التنظيم بنشاطه السياسي أكثر من نشاطه العسكري، ويعتنق ما جاء في أدبيات حسن البنا، وسيد قطب وأبو الأعلى المودودي، وعدد كبير من منظري جماعة الإخوان المسلمين التي تعتبر أول وأقدم جماعة في الحركة الإسلامية، حيث تأسست سنة 1928. فالأدبيات الشرعية التي تعتمد عليها هي كتب سيد قطب، وأبي المودودي ويوسف القرضاوي، هذه الجماعة تعتمد على مفاهيم تكفيرية مثل المناداة بالجاهلية المجتمع ، وهي نوع من المراوغة في السياسة الشرعية وفق مصالحها، وعليه فالجماعة تعتمد إلى تشفير المعالم الحزبية وتتحين الفرص للسياسة المتاحة للوصول إلى السلطة والتمكين.

البرنامج المعتمد في المعالجة وفك الارتباط

يعتبر برنامج «أرهوس» الذي اعتمدت عليه الدنمارك عام 2007 مرجعاً مهماً في استراتيجية نزع التطرف وإدماج المتطرفين؛ وهو في الحقيقة مستوحى من البرنامج الهولندي المسمى بـ«نحن أمستردراميون»، كإشارة إلى المصير المشترك الذي يجمع كل المواطنين، بغض النظر عن ديانتهم وتوجهاتهم الفكرية والسياسية. شرعت الحكومة الهولندية في أمستردام إلى تنفيذ برنامج المعالجة مباشرة بعد مقتل الرسام ثيو فان غوخ سنة 2004 من طرف محمد بويري الذي أراد الانتقام من سيناريو فيلم «الخضوع». كانت هذه البرامج هي عبارة عن مداخلات بمستويات ثلاثة، وهو ما يصطلح عليه بالهرم الوقائي:

المستوى الأول: المبتدئون، هم الذين لديهم ميول نحو التطرف، ويقوم برنامج هذه الفئات على تقديم ورش العمل لوضع تدابير للحماية ومحاضرات لتقوية شخصيتهم، وتعطى كذلك للمتخصصين والأساتذة في المدارس لتعليمهم طرق المعالجة.

المستوى الثاني: هم الذين حاولوا السفر إلى مناطق النزاع بسوريا والعراق، ويتجسد برنامجهم في المتابعة الفردية والأسرية وقياس خطورة الحالة عند كل فرد على حدة.

المستوى الثالث: هم العائدون من أرض المعركة وهؤلاء تعطى لهم جلسات فك الارتباط، ويبقون تحت الإشراف المستمر نظراً لعمق الخطورة والتهديد المحتمل.

الجلسات الوقائية: فك الارتباط الأيديولوجي

لاحظنا غياب برنامج عملي ووازن يقوم على معالجة التطرف في السياق البلجيكي، على الرغم من الاهتمام الإعلامي والسياسي الكبير بظاهرة التطرف الديني والإرهاب لسنوات خلت، لا سيما، إبان أوج فترة تنظيم «داعش»، الذي كان قد أتقن ونجح في سرقة الكثير من عقول الشباب من مسلمي أوروبا بدعايته الإسلاموية المتطرفة.

جاءت فكرة إنشاء منظمة ديراديانت سنة 2016 [27] والتي كانت مقترحة من رئيس لجنة مكافحة الإرهاب في البرلمان الفيدرالي ببلجيكا –آنذاك– السيد كون ماتسو، وكبير المحامين في الإرهاب؛ والتير دامان، للبدء في معالجة تفكيكية لهذه الأيديولوجية المتطرفة. ويمكن اعتبار المنظمة أنها من الأوائل والقلائل التي تصدت لظاهرة التطرف العنيف والإرهاب بمجموعة من الأخصائيين والخبراء لتفكيك التطرف ولتأهيل السجناء للاندماج في المجتمع أثناء وبعد خروجهم من السجن. تتلخص طريقة العمل المنظمة في كون عملها يقوم به مختلف الخبراء من مختلف التخصصات؛ عملها قائم على معالجة الأيديولوجية والنفسية والاجتماعية، وذلك عن طريق جلسات فكرية لمدة سنة مع تقديم تقرير شهري لأخذ تدابير مناسبة للحماية ثم تقييمها لقياس الانصلاح وما مدى نجاحه في فك الارتباط مع المجموعات المتشددة التي كان ينتمي إليها أو يتعاطف معها.

وكل ذلك بمرافقة أسرية وقانونية، وهذه الجلسات أو التدخلات يغلب عليها الطابع الحواري والنقاشي مع الإنصات للسجين لكي يعبر عن وجهة نظره. الجلسات الأيديولوجية هي عبارة عن مراجعات وتفكيك لأربعة وعشرين مفهوماً، تم اختيارها لأنها أكثر تداولاً لدى الجماعات المتطرفة مثل: الجهاد، والجاهلية، ودار الكفر، والولاء والبراء، والتوحيد، والخلافة، والشريعة... إلخ. إضافة إلى ما

(27) Brahim laytouss in Washington Post , As Europe prisons fill with returning ISIS Fighters warn of future 'human bombs' 2018.www.washingtonpost.com/graphics/2018/world/Europe-isis-prisoners/

يقدمه المرشدون الدينيون وعددهم حالياً (27) على الصعيد البلجيكي، وهو -بلا شك- عدد قليل وغير كافٍ لسد حاجيات السجون، نظراً للعدد الكبير من المسلمين الموجودين في السجون البلجيكية. علماً أن المرشدين المسلمين تابعون للجنة التنفيذية لمسلمي بلجيكا، المكلفة بتعيين أساتذة للتربية الإسلامية في المدارس، وتعيين الأئمة والخطباء في المساجد المعترف بها في بلجيكا، وتتكفل الدولة بمصاريف المساجد المعترف بها ورواتب الأئمة والأساتذة للتربية الإسلامية والمرشدين الدينيين في السجون، كما هو شأن الديانات والطوائف الأخرى، مع أن وظيفة المرشد الديني هي فقط تقديم التعليم الديني، ومرافقة السجناء في عباداتهم، والإجابة عن أسئلتهم اليومية.

أما ما تقوم به منظمة ديراديانت[28] فإنه يتجاوز ما هو تقليدي كتعليم المبادئ الأساسية والفقهية إلى ما هو فكري وأيديولوجي؛ إذ إن فك الارتباط يقوم أساساً على نوعين من العوامل، وهما أساسيان لنجاح التفكيك ولاجتثاث الأيديولوجية المتطرفة: وهما عامل الدفع، وعامل الجذب. أما عامل الجذب، فهو في كيفية التخلص من السراب أو الأوهام التي تسوقها تلك المجموعات للشباب على أنها دين وطاعة. وإلى العامل الجذاب، إذ يجب إخراجهم من العزلة الاجتماعية وجلبهم إلى الحياة العادية، وذلك بإدماجهم في العلاقات العامة الأربع: العلاقة مع الآباء، والعلاقة مع الزوجة، والعلاقة مع الأولاد، والعلاقة مع المجتمع، وهذه الأخيرة قد تكون علاقة مع الزملاء أو الجيران أومع غيرهم.

تقوم المعالجة في المنظمة بالتطرف العنيف من المستوى الثاني والثالث، وهي ليست برنامجاً وقائياً كما هو الشأن في المستوى الأول، قدر ما هي برنامج علاجي (مراجعات على مستوى الفكر والقناعات) وتفكيكي (فك الارتباط على مستوى الانتماء والولاءات). وهو برنامج يصلح للسجناء داخل السجون أو من هم حديثو عهد به، قصد الرصد والإشراف.

(28) Laytouss Brahim, DERADIANT, Nazorg voor begeleiding a.d.h.v. ideologische gesprekken, Zoetermeer ,Schrijvershuis, 2018.

نتناوب كل أسبوعين (تارة جلسة نفسية وتارة جلسة أيديولوجية) على إعطاء تلك الجلسات النفسية للسهر على راحته النفسية، ولتحسين احترامه لذاته، وتهيئة السجين للحياة العامة بعد إطلاق سراحه، والنظر في تطور نفسيته في بيئة السجن ومحيطه. تركز الجلسات على المعالجة الأيديولوجية والنفسية بعد الكشف عن كنهها وخطورتها عن طريق الحوار والمناقشة، وباستعمال تقنيات محادثة محددة. لا يجوز بتاتاً تأنيب السجين أو معاملته كمجرم أثناء الحوار، مع الحفاظ على مسافة معقولة بين الموجّه والسجين، لضمان المهنية العالية أثناء المعالجة، والعمل على إزالة الشبهات الفكرية التي حفزته على القيام بأفعال إرهابية. يقوم الموجّه بتفنيد وبيان ضعف الحجج الواهية أو «السراب الذي يرتكزون عليه كما سماه الباحث والمفكر الإماراتي جمال السويدي في عنوان كتابه القيم: «السراب»، والرد على الشبه التي تسوقها تلك المجموعات المتطرفة لقتل الأنفس والأبرياء، وتصحيح المفاهيم المغلوطة لديه بتأصيل فقهي وتحرير علمي، لا يُبقي مجالاً لتأويل فاسد وانتحال باطل، وتحقيق مناطات الأحكام التي تنتهجها الجماعات الجهادية، وتعارض ذلك مع المقاصد الكبرى للشريعة الإسلامية، بالاضافة إلى إجراء تمارين على آيات الجهاد ووهي ما يقارب (70) آية (آيات السيف) في المصحف (المترجمة معانيه) والوقوف عند تفسيرها العلمي الصحيح وفق قواعد علوم القرآن، والوقوف عند اللغة العربية كمدلول لغوي في التفسير، وتوسيع مدارك الفهم لأخذ سياقات الزمان والمكان والحال كمدخل رئيس للتفسير الصحيح للنصوص، والابتعاد عن الحزبية المقيتة والطائفية البغيضة. هناك من الخبراء والباحثين من يقلل من أهمية الجانب الديني في نزع التطرف، ويرجعونها إلى عوامل أخرى مثل: العوامل النفسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية، فهم يرون أن الدين لا يتجاوز نسبته (10٪) من كل هذا[29] من العوامل المسببة للإرهاب.

(29) Renard Thomas & Coolsaet Rik, Who are they, Why they (not) coming back, how should we deal with them? Egmont paper nr101, Egmont,Feb. 2018.

الخاتمة

يمكن إيجاز الجلسات الفكرية العلاجية المرافقة لآليات نزع التطرف وفقاً للتجربة البلجيكية على النحو الآتي:

- اجتثاث المفاهيم المغلوطة وتصحيحها بأسلوب علمي مقنع.
- الاستمرارية في تهيئة السجين للحرية بعد إطلاق سراحه، والاندماج من جديد في المجتمع
- إشراك المؤسسات الدينية والآباء.
- إيجاد محيط آمن وبث روح الأمل في الإنصلاح.
- اعتماد خبرة التخصصات المتعددة، وتكون القرارات جماعية.
- اعتماد المنهج العلمي في المعاجة، والابتعاد عن العاطفة.
- اعتبار السجن فترة تأمل وإقلاع وتوبة.
- استغلال الوقت بما يفيد، والتخلص من العادات السيئة.
- الاهتمام بالتدريب تدريجياً على الاندماج الاجتماعي.
- تنوع الجلسات الأيديولوجية والنفسية من أجل ضمان التوازن بين حاجيات الأمن الفكري والنفسي والاجتماعي.